AFAQ LUGHAWIYYAH
© PENERBIT UNIVERSITI SULTAN ZAINAL ABIDIN
https://journal.unisza.edu.my/afaq
e-ISSN: 2990-9007

تجليات الخطاب الأخلاقي في أدب الصعاليك والثورة على المجتمع: عروة بن الورد أنموذجا

[MANIFESTATIONS OF MORAL DISCOURSE IN TRAMP LITERATURE AND REVOLUTION ON SOCIETY: 'URWAH BIN AL-WARD AS AN EXAMPLE]

Zouhair Tbatou

Faculty of Arts and Social Sciences – Sais, Sidi Mohamed Ben Abdellah University, Morocco

Corresponding Author: *tbatouzouhir@gmail.com*

Received: 9/9/2023 *Accepted: 19/2/2024* *Published: 31/3/2024*

ملخص

تهدف هذه الدراسة إلى تعميق البحث في أدب الصعاليك للكشف عن جوانبه الخلقية وأبعاده الإنسانية، المتجلية في خطابهم الشعري، بعدما عُرفت الصعلكة على امتداد التاريخ بكونها تحمل دلالة السرقة والنهب والسلب، وجاء هذا البحث استبصارا للمعاني الخفية المتجلية في البعد الإنساني لكل شاعر، وخصوصا في العصر الجاهلي الذي عرف بكثرة الشعر وبواكر النظم العربي، وبالذات مع زعيم الصعاليك عروة بن الورد، الذي نافس في الخلق الرفيع كلا من أباء الكرم كحاتم الطائي وأرباب الوفاء كالسموأل. واتبعنا في ذلك منهج الاستقصاء عن الحقائق التاريخية والأحداث والنوازل الحقيقية للصعاليك ومواقعهم وآثارهم وتجليات خطاباتهم من خلال الشعر وأخبارهم المتواثرة عبر قنطرة كتب الأدب.

الكلمات المفتاحية: الصعلكة، الصعلوك، الصعلكة الخلقية، الثورة والتمرد، النظام الأخلاقي، التكافل الاجتماعي

Abstract

This study aims to deepen the research about tramp literature in order to detect its hidden aspects and to also reveal the human dimension manifested in their poetic discourse. The vagrancy has been known throughout history by theft and assault. Therefore, this research is an insight into the hidden

meaning manifested in the human dimension of each poet. Especially in the pre-Islamic era which has known the beginning and the abundance of Arabic poetry. The focus will be on 'Urwah bin al-Ward, the leader of the tamps who surpassed Hatim al-Ta'i in generosity and fidelity. In this research, we followed the survey approach of historical facts, events and realities of the tramp, their locations, and the manifestation of their discourse through poetry and their news through literary books.

Keywords: *vagrancy, tramp, moral vagrancy, revolution and rebellion, moral system, social solidarity*

مقدمة

لا يختلف اثنان على أن الأدب العربي ميدان إبداع وتراكم خبرة، اختلفت مشاربه وتنوعت منابعه بتعدد المدارس والتجارب الخاصة بكل شكل من أشكاله نثرا كان أو شعرا، وخصوصا هذا الأخير الذي حظي بنصيب عظيم من الرعاية والاهتمام، وقد اتخذه الكثير شعلة للتعبير عن مكنونات الفؤاد وبواكر أفكار العقل، ومن هذا المنطلق كان لكل شاعر تجربته الخاصة وإن تشارك مع البعض في التوجه والتيار والعصر...، وقد اخترنا في موضع بحثنا شعر الصعاليك في العصر الجاهلي، كنموذج خلاق ومتجدد يعبر من خلاله أهل التجربة عن مواضيع عدة قد تكون منطقية تارة وقد تكون ضربا من ضروب اللامعقول في مواطن عدة.

ويأتي هذا البحث في سياق الكشف عن الجانب الإنساني الذي تخفيه تجربة الصعلكة في الثقافة والحضارة العربية، وخصوصا في العصر الجاهلي، وذلك في إطار تغيير الرؤية والتمثلات الذهنية العامة عند القراء، باعتبارهم للصعلكة مصاحبة لرمزية السلطة والقوة والفتوة التي أرعبت قبائلا وشعوبا على امتداد طويل من الدهر، وفي مختلف شعاب بلاد العرب.

مشكلة البحث

إن الباحث في أي ميدان معرفي كيفما كان سياقه، لا بد له من طرح أرضية متينة، للكتابة والتنقيب في ميادين العلم والثقافة، ولهذا، كان موضع الصعلكة، موضوعا شيقا وشائكا معا، يستحق الدراسة بتمعن، فأغلب الكتابات ترى أن الصعلكة حركة اجتماعية وأدبية، من حيث منطلقاتها الوجودية من جهة، والإبداعية من جهة أخرى، فقد شكلت ثورة على المجتمع، وأجاد أصحابها في ميادين النظم الشعري، فشكلت في الوعي الثقافي، تصورا خاصا حول مجموعة من المشردين والمجرمين واللصوص، الذين خرجوا عن أعراف القبيلة والثقافة السائدة.

لكن الإشكالية الحقيقة، التي يمكن للباحث مواجهتها بوجه مكشوف ومباشر، هي محاولة البحث عن الجانب الأخلاقي لهذه الحركة، وإعادة هيكلة تصور جديد حول مشروع الصعلكة الأخلاقية، نظرا لقلة المصادر الدالة على ذلك، ولتَقشُفِ المؤرخين من محاور أحاديثهم

وأشعارهم، فترى الكشف عن هذا الجانب أمرا جد صعب، وما قدمناه في الصفحات الخاصة بهذا البحث، هو أولا وأخيرا محاولة من محاولات عدة.

ولهذا تتمحور إشكالية الدراسة حول تحديد موقف الصعاليك من الحياة ومن النظام الاجتماعي، مع إبراز الجوانب المؤثثة لحركة الصعلكة وتوجهاتها العامة والخاصة، من خلال تجربتهم الشعرية.

أسئلة البحث

وللوصول لمدى معرفي محدد ودقيق، بغية تحقيق نتائج بحثية ذات قيمة أساسية، يجب الإجابة على الأسئلة الآتية:

١) ما هو السياق التاريخي والثقافي الذي ولدت فيه حركة الصعلكة؟ وما أهم مميزاتها؟

٢) ما الدوافع الأساسية لقيام حركة الصعلكة؟ وما الأوجه الخفية لهذه التجربة الاجتماعية؟

٣) ما هي الخبايا الاجتماعية والأبعاد الأخلاقية التي تنطوي عليها تجربة العلكة؟ وإلى أي حد استطاع عروة بن الورد تجسيدها على أرض الواقع؟ وما تأثيراتها؟

٤) ما الجانب الأكثر تطبعا في تجربة الصعلكة، أهو الجانب السلطوي أم الجانب الأخلاقي ذو البعد القيمي؟

وبناء على التساؤلات السابقة، يمكن تحدد أهداف هذا البحث في النقط الآتية:

١) الكشف التاريخي عن تجربة اجتماعية عاشتها الحضارة العربية، وبالتحيح في العصر الجاهلي.

٢) تحري الدقة والموضوعية في الكشف عن الجوانب الأخلاقية والبعد القيمي، لتيار الصعلكة الشعري.

٣) استهداف عروة بن الورد كمثال، وتحديد مظاهر وتجليات خطابه الشعري وأبعاده القيمية.

منهجية البحث

من خلال الموضوع وإشكالياته السابقة، كان لا بد لنا من إقحام البعد التاريخي في البحث مع التركيز على منهج الاستقصاء عن المعطيات الدقيقة سواء بكتب الأدب أو التاريخ، وكذا الاعتماد على المنهج المقارن في عدة مواضع لتحديد الخصائص الفنية والخلقية عند بعض الصعاليك المشهورين.

أما فيما يتعلق بالشكل البنائي للدراسة، فقد كان لا بد لنا في خضم هذا البحث التعريج على دلالة مفهوم الصعلكة، مرورا بتحديد الخصائص المميزة للصعاليك ولتجربتهم الشعرية، وقوفا على قضية الثورة ونصرة الضعيف في أشعار هذا التيار، وصولا إلى دراسة نموذج خاص يعبر عن جوهر هذا التيار الثوري الأخلاقي بشكل راقي وهو عروة بن الورد العبسي.

المبحث الأول: الصعلكة وسؤال التعريف بين اللغة والعرف

المطلب الأول: الصعلكة والدلالة اللغوية/المعجمية

قد يقول قائل إن الصعلكة نوع من النهب والسرقة والسلب...تجذرت في العرف العام وعلى ألسن عدة، لكن الحقيقة أن هذا المصطلح قد عرف في معاجم اللغة وقواميسها بأوجه مخالفة لما سبق، إذ ورد عن ابن منظور في معجمه لسان العرب من مادة "صعلك" على أن: "الصعلوك: الفقير الذي لا مال له..ولا اعتماد، وقد تصعلك الرجل إذا كان كذلك، قال حاتم الطائي (Ibn Mandour, 1995, pp. 455-456):

غَنَيْنَا زَمَانًا بِالتَّصَعْلُكِ وَالغِنَى * فَكُلاً سَقَيْنَاهُ، بِكَأْسَيهِمَا، الدَّهْرُ
فَمَا زَادَ بَغْيًا عَلَى ذِي قَرَابَةٍ * غِنَانا، وَلاَ أَزْرَى بِأَحْسَابِنَا الفَقْرُ

كما ورد بالمعجم الوسيط معنى "الصعلوك: الفقير"-(Mojamaa al-Logha al-Arabiya, 1994, p. 115) وفي نفس السياق نجد بالقاموس المحيط شيوع هذا اللفظ بدلالة بمعنى "صعلكه: أفقره...والصعلوك كعصفور: الفقير، وتصعلك: افتقر" (al-Fayrouzabadi, 2008, p. 930).

ومن هذا المنطلق اللغوي يتبين لصاحب العقل الرصين أن "الصعلكة –في مفهومها اللغوي: الفقر الذي يجرد الإنسان من ماله، ويظهره ضامرا هزيلا بين أولئك الأغنياء المترفين الذين أتخمهم المال وسمنهم" (Khalif, 1978, pp. 22-23).

أما عن الصحاح فـــــ"صعلك: الصعلوك: الفقير، وصعاليك العرب: ذؤبانها، وكان عروة بن الورد يسمى عروة الصعاليك، لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمه، والتصعلك الفقر" (al-Jawahiri, 2009, p. 646).

لكننا نلاحظ من خلال التعريف السابق قوله (ذؤبانها)، "وحين نذهب إليه أعني الصحاح، في شرحه لكلمة ذؤبان نراه يقول: وذؤبان العرب أيضا صعاليكها الذين يتلصصون. فقد صرح إذن في شرحه لكلمة ذؤبان أن الذؤبان هم الصعاليك، وأن الصعاليك ليسوا مجرد فقراء، وإنما يتلصصون، في حين أنه لم يذكر هذا المعنى صراحة في شرحه للفظ الصعلكة" (Hanafi, 1987, p. 19)، وهذا دليل على أن الدلالة اللغوية قد أشارت في بعض الأحيان إلى خروج معنى الصعلكة من دلالة الفقر إلى معنى اللصوصية، وهذا ما سيدفعنا لتقصي المعنى في العرف الأدبي إبان العصر الجاهلي الذي نحن بصدد عرض حركة الصعلكة فيه.

المطلب الثاني: الصعلكة في العرف الأدبي

لقد اعْتُبِرَ الصعاليك في دلالة العرف الجاهلي ومن خلال أشعارهم على أن "شعر الصعاليك والذؤبان والشذاذ الذين نبذهم المجتمع الجاهلي فامتزجوا بالبادية امتزاجا حيويا شديدا، وكانوا شعراء البادية بكل ما في الكلمة من معنى" (al-Fakhouri, 1986, p. 164)، إذ يعتبرون أفضل معبر عن تيار الانفرادية البدوية. فالصعاليك "جماعة من اللصوص انتشروا في الجزيرة العربية يكسبون العيش بالنهب والسلب. وقد نبذتهم قبائلهم إما لأنهم كانوا أبناء إماء، أو لأنهم أتوا بأعمال تتنافى وتقاليد تلك القبائل أو تعرضها لأخطار جسيمة" (al-Fakhouri, 1986, p. 165).

إذن فالصعاليك طائفة عاشت على السلب والنهب، عرف تاريخها أغلبه من خلال كتب الأدب والمتوارث من شعرهم، ولم "تقف هذه اللفظة (الصعاليك) في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق" (Dayf, 2000, p. 375).

والواقع أن هناك ألفاظا أخرى تشارك الصعلكة في مدلولها "ولا يسع البحث في هذا الموضوع أن يتجاهلها، لأن تجاهلها إخلال بجوانب من الموضوع نفسه، وذلك أن موضوع البحث لا تعنيه الصعلكة بمدلولها اللغوي وهو الفقر، وإنما يعنيه مدلولها العرفي، وهو اللصوصية وقطع الطريق، وباقي أساليبهم العدوانية، وهذا المدلول تؤده أو تؤدي بعضه ألفاظ أخرى تعارفت كتب التاريخ والأدب العربي أن تصف بها هذه الطائفة التي نحن بصددها، دون تحديد فاصل بينها، بحيث نجد بعضها يتداخل فيؤدي معنى البعض الآخر، كما فعلت معاجم اللغة في إحالتها معنى التصعلك على التذؤب واللصوصية، وهذه الألفاظ كثيرة، وأشهرها: لص، وذئب،

وفاتك، وخليع، وشيطان، وشاطر، وبعض هذه الألفاظ ألصق بالصعلكة من بعض، ومن الواضح أن أقرب هذه الألفاظ إلى المدلول العرفي للصعلكة هي اللص، وذلك بحكم وضعه اللغوي، وبحكم استعماله" (Hanafi, 1987, p. 20).

لكن المستفاد من تنوع هذه الألفاظ التي تتقارب في غالب الأحيان وإن إختلفت المدلولات الخاصة بنوع النهب والسلب والحيلة، دليل على تنوع أساليب الصعلكة، "حيث يدل كل لفظ على أسلوب معين من مزاولة صاحبه سلوكه العدواني، فنخرج منها بأن للصعلكة أساليب متنوعة من مزاولتها، وأن الروايات حيثما تنسب لفظا منها إلى أحد الصعاليك في ترجمته، فإنما تعني أسلوبه وطريقته التي عرف بها في الصعلكة، وهذا لا يمنع أن يكون للصعلوك الواحد أكثر من طريقة، حينما ينسب إليه أكثر من لفظ من هذه الألفاظ في ترجمته وأخباره" (Hanafi, 1987, p. 26).

أما من ناحية التوجهات والأقطاب التي خرج منها الصعاليك فيمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات (Marwa, 1990, p. 9):

١) طبقة الفقراء مثل عروة بن الورد، وبعض القبائل الفقيرة مثل هذيل وفَهمْ.

٢) طبقة الخلعاء مثل حاجز الأزدي وقيس بن الخدادوية وأبي الطمحان القيني.

٣) طبقة الأغربة السود مثل تأبط شرا، والشنفرى، والسليك بن سلكة.

وإن اختلفت طوائفهم كما تبين لنا، لكنه "قد وحد بين هؤلاء وجمع بينهم الجوع المدقع، والضياع في مجاهل الصحراء، والتشرد في الفيافي الواسعة، والتمرد المختزن في الصدور على واقع مرفوض عندهم، وأدى التمرد في النهاية إلى ثورة على المجتمع الجاهلي وما يمثل من قيم وتقاليد. ومضوا يحققون وجودهم ويفرضون أنفسهم على مجتمع لم يعترف بهم، ولم يؤمن لهم أسباب الحياة، وكانت وسائلهم الإغارة من أجل السلب والنهب، فأغاروا على الأسواق، ونهبوا بالقوافل، وسلبوا الإبل" (Marwa, 1990, p. 9).

ومن هنا نجد أن العرب "حينما يتحدثون عن الصعاليك يتحدثون عنهم على أنهم فئة خاصة تتميز عن المجتمع بطابع خاص، شعاره الاعتداد بالنفس دون الأهل أو القبيلة، ووسيلته العدوان في أي صورة تتهيأ له، فيقطع الطريق حينما تمكنه الغرة، ويتلصص إن لم يجد إلى ما سبق وسيلة، ويجعل غايته من ذلك كله الحصول على الغنى والمال في أغلب الأحيان أو تحقيق مآرب خاصة دائما (Hanafi, 1987, p. 27)، وعليه فهذا التيار اعتبر كسلوك عدواني عبر من خلاله جمع من الناس عن الرفض والتمرد على قوانين القبيلة التي لاحظوا من منطلقاتهم

الخاصة نوع من الظلم والحيف والصراع الطبقي، مما دفعنا بشكل مباشر إلى الولوج لمبحث خاص عن الدوافع التي أضحت الركيزة الأساسية لهذا التوجه الثوري في الأدب والواقع.

المبحث الثاني: الصعلكة ثورة وتمرد

إن موضع الثقة والمتفق على أصله أن أي حركة كانت فكرية أو اقتصادية أو اجتماعية...هي رد فعل عن فعل معاكس، يرى المنتفض فيه نفسه موضع ضعف ومهانة واستحقار، فيجد حبل النضال الحبل الأوثق للتشبث به من أجل التعبير عن هذا الرفض، ونفسه ما فعله أهل الصعلكة وروادها. ولهذا يقول الدكتور يوسف خليف: "إن صعاليك العرب سلكوا جميعا أسلوبا واحدا في الحياة، آمنوا بأنه الأسلوب الوحيد الذي يستطيعون به أن يرفعوا عن كواهلهم ما وضعته فوقها ظروف مجتمعهم الجغرافية، وتقاليده الاجتماعية، وأوضاعه الاقتصادية، من ضيم وهوان، وهو ذلك الأسلوب الذي جعلنا شعاره (الغزو والإغارة للسلب والنهب)" (Khalif, 1978, p. 220).

وللتعرف على سبب الرفض لا بد من معرفة الداء قبل تحديد الدواء، فقد أجمع الباحثون والمنقبون في كتب التاريخ والأدب، ومن خلال دراسة أشعار الصعاليك وأخبارهم وفي مقدمتهم الدكتور يوسف خليف على أن احتراف الصعلكة كان المقصود منه "التعيش، ومجابهة الفقر" (Hanafi, 1987, p. 38)، كإقرار على انتشار الظواهر الاجتماعية وقساوتها وفي مقدمتها شدة الإملاق، فكان دافع خروجهم ثورة على النظام الاجتماعي الذي ينقسم إلى طائفتين الأولى حكر للقوي على حساب الثاني وهي طائفة الفقراء والعبيد. فاختلال "التوازن الاجتماعي، أدى إلى نشوء طائفة الصعاليك في العصر الجاهلي. والتي خلقت لنفسها مجتمعا آخر يعنى بقيم جديدة في مجتمع جديد، وهو مجتمع الصعلكة. الذي آمن بالغزو من أجل النهب والإغارة من أجل السلب" (Marwa, 1990, pp. 9-10).

ومن هذا المنطلق كانت الصعلكة نتاجا لافتقاد العصر الجاهلي من وجهة نظرهم للعدل والمساواة، فعبروا عن تمردهم بالسيف والإبداع الشعري، لما يحمل هذا الأخير من قدرة رمزية إبان مرحلة الجاهلية، ومدى تأثيره الشديد في النفوس والقادر على نشر القيم والتأثير في المتلقي.

أما العوامل الاقتصادية وما لها من ارتباط وطيد بالوضع الاجتماعي فقد اعتبرت قضية الفقر والغنى من منطلق الصعاليك حيفا في حق المجتمع العربي الإسلامي، "فعرض الشعراء الصعاليك آراءهم الاجتماعية والاقتصادية باقتدار وعمق، ودافعوا عنها بحرارة وصدق، وقدموا لنا لوحات حوارية نابضة بالصراع مع اللائم والمحذر والمغاضب، موظفين طاقات فكرية وشعورية وتعبيرية متميزة، ومعبرين عما يحدثه الفقر من آفات وآثار على مختلف المستويات – وخاصة الجانب النفسي-، وما يجلبه الغنى من فضائل بحق أو بغير وجه حق" (Hamdouch,

(2012–2013, pp. 104–105). وقد عبر عن هذه الحالة الاجتماعية والاقتصادية المزرية التي تمثلت في الفقر قول "عروة بن الورد (Abu Bakr, 1998, p. 79):

دَعِينِي لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنّي * رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمُ الفَقِيرُ
وَأَبعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيهِم * وَإِنْ أَمْسَى لَهُ حَسَبٌ وَخَيرُ
وَيُقْصِيهِ النَدِيُّ وَتَزْدَرِيهِ * حَلِيلَتُهُ وَيَنهَرُهُ الصَغِيرُ
وَيُلْفَى ذُو الغِنَى وَلَهُ جَلاَلٌ * يَكَادُ فُؤَادُ صَاحِبُهُ يَطِيرُ
قَليلٌ ذَنبُهُ وَالذَنبُ جَمٌّ * وَلَكِن لِلغِنى رَبٌّ غَفورُ

وعلى نفس المنوال والسياق نظم السليك مصورا لنا فقره" (Danan, 1994, p. 84):

وَما نِلْتُهَا حَتّى تَصَعْلَكْتُ حِقْبَةً * وَكِدْتُ لأَسْبَابِ المَنِيَّةِ أَعْرَفُ
وَحَتّى رَأَيتُ الجُوعَ بِالصَيفِ ضَرَّنِي * إِذَا قُمْتُ تَغَشَانِي ظِلاَلٌ فَأُسْدِفُ

ولهذا "ينظر الصعاليك الأقوياء إلى المجتمع الذي يعيشون فيه، فإذا هو مجتمع ظالم، وإذا توزيع الثروة فيه توزيع جائر مضطرب. إنه مجتمع لا يؤمن إلا بالمال، ولكنه –مع ذلك– لا يحسن توزيع المال بين أفراده، فليس من العدل أن يكون لأحد أفراده عدد ضخم من الإبل في حين لا يملك الآخر غير حبل يجره لا بعير فيه، وهذه الإبل التي يملكها هذا الفرد سوى إبل الله خلقها للناس جميعا، فهي ليست حقا له وحده دون غيره من خلق الله في هذه الأرض" (Khalif, 1978, p. 46) المشتركة بين البشر جميعا بشكل عام وبين ربوع أرض الجزيرة العربية بشكل خاص.

بالاضافة إلى العوامل السابقة يمكن إضافة عامل انعدام وجود دولة جامعة ومكتملة الأركان، "ولسنا نعني الشكل الظاهري لمعنى الدولة الجامعة، وإنما نعني عدم وجود قوة حيوية متحركة تسيطر على الأمة، ويحس أفراد شعب هذه الأمة، بأنهم مرتبطون بهذه القوة وخاضعون لها خضوعا يؤثر في سلوكهم" (Hanafi, 1987, p. 42)، فمن المعروف أن الحضارة العربية لم تعرف معنى الدولة بمفهومها البنائي في الجاهلية تجمعهم وتحدد حدودها وأركانها، وتجعل أهلها يشعرون معها بالخضوع والانقياد، وإن كانت هناك ممالك تأسست لكن سلطانها محدود النطاق، فلم يكن لهذه الدويلات "من السلطان الثابت والهيبة المستقرة ما يبسط أثره على الحياة الاجتماعية وعلى سلوك الأفراد، ومن ثم لا يرى الأفراد حاجرا على سلوكهم ولا حائلا بينهم وبين ما يرتضونه لأنفسهم من سبل السلوك، سواء كان هذا السلوك صعلكة أو غيرها" (Hanafi, 1987, p. 44). وخير مثال ما عبر عنه شاعر البادية والخلاء الشنفرى الأزدي حين قال" (Farahat, 2004, p. 44):

أَقِيمُوا بَنِي أُمَّي صُدُورَ مَطِيَّكُمْ * فَإِنِّي إِلَى قَوْمٍ سِوَاكُمْ لَأَمْيَلُ
فَقَدْ حُمَّتِ الحَاجَاتُ وَاللَيْلُ مُقْمِرٌ * وَشُدَّتْ لِطِيّاتٍ مَطَايَا وَأَرْحُلُ
وَفِي الأَرْضِ مَنْأَى لِلْكَرِيمِ عَنِ الأَذَى * وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ القِلَى مُتَعَزَّلُ
وَلِيْ دُونَكُمُ أَهْلَونَ سَيِّدٌ عَمَلَّسٌ * وَأَرْقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جَيْأَلُ
هُمُ الأَهْلُ لاَ مُسْتَوْدَعُ السِرَّ ذَائِعٌ * لَدَيهِمْ وَلاَ الجَّانِي بِمَا جَرَّ يُخْذَلُ

فقد اتخذ الشنفرى وحوش الصحراء مجتمعا له، واعتبرهم أهلا يلجأ إليهم وقت الحاجات، يفضلهم على "أهله الحقيقيين وقبيلته لأنهم أحفظ للسر، وأقدر على نصرته وحمايته، وفيها من الخصال ما لا يوجد عندهم إنها دلالة رمزية فيها ما فيها من التشهير بمجتمع البشر بكل سلبياته" (al-Matin, 2012, p. 42)، ونابذا مختلف أشكال التجمع القبلي بمختلف قوانينه.

ولا يمكن للإنسان أن يعتبر الدوافع السابقة هي الوحيدة المحفزة لنشوء الصعلكة، إنما هي من جملة ما قد يؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في دافعية الفرد للتعويض عن نقص، أو للإعراب عن نية، فالصعلكة على حد سواء تيار وتوجه وحركة كان الغرض منها السرقة والنهب والسلب بفعل الأسباب الاقتصادية والاجتماعية والبيئية وغيرها الكثير، فقد اعتبرت هذه الجماعات أن السرقة والنهب حق من حقوقهم ما دام أن الغني يكتنز الأموال والإبل والنعم، والفقير يعيش على حاجة وعوز فطبقوا المثال العربي القائل: "الخَلَّةُ تَدْعُو إِلَى السَّلَّة"(al-Fayrouzabadi, 2008).

وعليه كانت الصعلكة حركة ثورية نابذة لمختلف أشكال الاضطهاد والنكران والطبقية الفاحشة التي تزيد من غنى الثري وترفع من حجم معاناة الفقير الكادح الذي لم يجد قوت يومه أو لقمة يسد بها جوعا أغشاه، لتصبح الصعلكة نوعا من النضال الشريف وإن كان مبنيا على باطل متمثل في النهب والسرقة إلا أن هدفه نبيل، لإغاثة كل محتاج ونبذ كل أشكال العنف الرمزي والمادي على الطبقة المقموعة في العصر الجاهلي.

المبحث الثالث: بين الصفات الخلقية والخصائص الجسمانية للصعاليك

يتفق الباحثون في مجال أدب الصعاليك، على جمع هذه الطائفة بين ميزتين أساسيتين، سمة القوة الجسدية، وسمة البطولة الخلقية، وسنحاول من خلال هذا البحث، محاولة مقاربة هذه الصفات لبيان الجمع الحاصل بينها، وما آثاراه من تأثيرات في شخصيات الصعاليك وحياتهم وطبيعة التفكير السائد في جماعاتهم أو بين فرادهم على حد سواء.

أما ما يتعلق بالصفات الجسدية، فإن طبيعة الإنسان البدوي العربي معروفة بالقوة والصلابة لصلابة المناخ، فالإنسان ابن بيئته ومجاله الجغرافي، يكتسب منها مميزاته الجسدية، ولهذا اتسم أغلب الصعاليك ببنيات جسدية قوية، تغنوا بها في نظمهم، فعلى سبيل المثال لا الحصر، عرف السليك بن سلكة بشدة العدو وسرعته الفائقة، وفيه يقول الأصفهاني في كتاب الأغاني: "وهو أحد صعاليك العرب العدائين الذين كانوا لا يُلحقون، ولا تعلق بهم الخيل إذا عدوا. وهم: السليك بن سلكة، والشنفري، وتأبط شرا، وعمرو بن براق، ونفيل بن وراقة"(al-Assfahani, 1994, p. 464).

فالسليك بن سلكة سريع الخطوة يعطى به المثل في شدة العدو، وقد علق شوقي ضيف على ذلك قائلا: "وتتردد في أشعارهم جميعا صيحات الفقر والجوع، كما تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء والأشحاء، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العدو حتى ليسمون بالعدائين، وحتى لتضرب الأمثال بهم في شدة العدو: أعدى من السليك وأعدى من الشنفرة" (Dayf, 2000, p. 375)، وتروى عنهم أقاصيص عدة في هذا الجانب حد الأسطورة والخيال، ومن هذا مثل ما حكي عن تأبط شرا من أنه "كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة، فكان ينظر إلى الظباء فينتقي على نظره أسمنها، ثم يجري خلفه فلا يفوته، حتى يأخذه، فيذبحه بسيفه، ثم يشويه فيأكله"(al-Assfahani, 1994, p. 87).

وبهذا أضحى الصعاليك "أقوياء يمشون على شريعة القوة، وتتجلى قوتهم الجسمية بنوع خاص في سرعة عدوهم، فهم أشد الناس عدوا، حتى لقد نسجت الأساطير حول سرعة ذلك العدو. وهم إلى ذلك جماعة جرأة، الحياة والموت سواء في نظرهم، فلا يعبأون بشيء، همهم الأوحد هو الهدف الذي ينشدونه أيا كانت العاقبة. ولكن جرأتهم غير التهور، فهم ذوو حيلة، وذووا فرار حيث لا بد من الفرار للنجاة من هلاك محقق ولاستئناف الصراع في سبيل الهدف. وهم مع ذلك كله ذووا نزعة إنسانية تجتمع اجتماعا غريبا مع صفات التوحش والفتك والقوة"(al-Fakhouri, 1986, p. 165).

ومن هذا المنطلق، فقد اقترنت البطولة الحربية المرتبطة بالبسالة والقوة، مع الطابع الخلقي والنفسي الرائع "تتراءى على ألسنة فرسانهم في طائفة من مكارم الأخلاق كانوا يتحلون بها ويعتزون اعتزازا شديدا، ولعلهم لم يعتزوا بخصلة كاعتزازهم بخصلة الكرم، وخاصة حين ينزل بهم الجدب وتقسو السماء فلا ترسل عليهم غيثها، فتمتد الرمال الشاحبة من حولهم، كأنها بحر ليس له ساحل ويمتد معها الجوع والبؤس القاتل، حينئذ يبرز فرسان القبيلة الذين سودتهم فينحرون لها من خيلهم وأغنامهم، وقد ينحرونها جميعا، لا يبتغون جزاء ولا شكورا" (Dayf, 1998, p. 16). معبرين عن هذه التجربة من خلال نظمهم، فها هو ذا عروة بن الورد

رادا على زوجته التي كانت تلومه على حياته القائمة على المخاطر الغزوات مجيبا (Abu Bakr, 1998, p. 67):

أَقِلّي عَلَيَّ اللَومَ يَا بِنْتَ مُنذِرٍ ❋ وَنَامِي وَإِنْ لَمْ تَشْتَهِي النَوْمَ فَاِسْهَرِي
ذَرِينِي وَنَفْسِي أُمَّ حَسَّانَ إِنَّنِي ❋ بِهَا قَبْلَ أَنْ لاَ أَمْلِكَ البَيْعَ مُشْتَرِي
أَحَادِيثٌ تَبْقَى وَالفَتَى غَيْرُ خَالِدٍ ❋ إِذَا هُوَ أَمْسَى هَامَةً فَوْقَ صُيَّرِ
فَإِنْ فَازَ سَهْمٌ لِلمَنِيَّةِ لَمْ أَكُنْ ❋ جَزُوعًاً وَهَلْ عَنْ ذَاكَ مِنْ مُتَأَخِّرِ

فحياتهم في الجاهلية كانت تقوم بالأساس على "المساواة وتحقيق العدالة الاجتماعية فيما بينهم. إذ كانوا يوزعون ما يغنمون على أنفسهم بالتساوي وقد تميز عروة بن الورد بأنه كان يعطف على الفقراء، ويقسم لهم مما يغنم" (Marwa, 1990, p. 9)، كدليل على صفة التكافل الاجتماعي في زمن قل هذا التعامل، وسيطرت عليه صفة هيمنة القوي على حساب الضعيف.

كما عرف الصعاليك بالابتعاد عن الذل بعد السماء عن الأرض، وتحمل مشاق الحياة، وهي صفة نبيلة لا يحملها إلا صاحب قلب مشيع، فهم "أباة الضيم لا يقبلون الذل في سبيل لقمة العيش ويفضلون الجوع على الذل والموت على الخضوع، يقول "أبو خراش الهزلي (Srbaz, 1389, p. 44):

وَإِنّي لَأُثْوِى الجُوعَ حَتَّى يَمَلَّنِي ❋ فَيَذْهَبَ لَمْ يَدَنَسْ ثِيَابِيَّ وَلاَ جِرْمَى
وَأَغْتَبِقُ المَاءَ القَرَّاحَ فَأَنتَهِى ❋ إِذَا الزَادَ أَمْسَى لِلمُزَلَّجِ ذَا طَعْمِ
مَخَافَةَ أَنْ أَحْيَا بِرَغْمٍ وَذِلَّةٍ ❋ وَلَلْمَوتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ عَلَى رَغْمِ

فهو متحمل للجوع حتى ينكشف عنه دون أن يقبل فيه ضيما أو عارا، ويكتفي بشرب القراح، بينما البخلاء حوله يتمتعون بأنواع الأطعمة والأشربة، وبفعل كل ذلك حتى لا يوصم بعار ويبتعد عن الذلة والخضوع، لأن الموت عنده أولى من حياة فيها إرغام.

إن تحمل الجوع عند الصعلوك بصفة عامة، أعظم وأشرف له من قبول منة الآخرين، ويقول الشنفرى في لاميته المعروفة:

أُدِيمُ مِطَالَ الجُوعِ حَتَّى أُمِيتَهُ ❋ وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحاً فَأُذْهَلُ
وَأَسْتَفُّ تُرْبَ الأَرْضِ كَيْلا يُرَى لَهُ ❋ عَلَيَّ مِنَ الطَّوْلِ امْرُؤٌ مُتَطَوِّلُ
وَلَوْلاَ اجْتِنَابُ الذَأْمِ لَمْ يُلْفَ مَشْرَبٌ ❋ يُعَاشُ بِهِ إِلاَّ لَدَيَّ وَمَأْكَلُ
وَلَكِنَّ نَفْسَاً مُرَّةً لاَ تُقِيمُ بِي ❋ عَلَى الذَامِ إِلاَّ رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ
وَأَطْوِي عَلَى الخَمْصِ الحَوَايَا كَمَا ❋ خُيُوطَةُ مَارِيٍّ تُغَارُ وتُفْتَلُ

فالشنفرى يمتنع ويأبى الأكل بمنة حتى لتجتمع الأمعاء فتصبح كالخيط الواحد، فإن الإيباء صفة الصعلوك الحقيقي وكرمه صفة ملازمة لإيثاره، وهذه المثالية من مثالية عنترة بن شداد العبسي، إذ يقول عروة بن الورد في جواب أخيه الأكبر الذي كان يلومه على نمط عيشه وصعلكته ويفخر عليه برفاهيته (Abu Bakr, 1998, p. 61):

إِنِّي اِمْرُؤٌ عَافِي إِنَائِيَ شِرْكَةٌ * وَأَنْتَ اِمْرُؤٌ عَافِي إِنَائِكَ وَاحِدُ
أَتَهزَأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرَى * بِوَجْهِي شُحُوبَ الحَقِّ وَالحَقُّ جاهِدُ
أُقَسِّمُ جِسْمِي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ * وَأَحْسُو قَرَاحَ المَاءِ وَالمَاءُ بَارِدُ

فعروة في هذا المقام يعبر عن معنى إنساني رفيع، إذ "عيره أخوه الأكبر بالشحوب والهزل فيقول له: يشركي في الإناء كثر من الفقراء المحتاجين والحفاة المعوزين، وأنت تأكل وحدك ولا يشاركك أحد، ولذلك سمنت وأما أنا فأصبحت ضامر البطن، نحيل الجسم، وشاحب اللون، وما شحوب جسمي إلا أثر من آثار قيامي بحقوق هؤلاء المحتاجين، فلست أنا خليق بالهزء والسخرية، بل أنت الأحرى بهما، ثم قال: أقسم جسمي في جسوم الفقراء أي أقسم طعامي بيني وبينهم، بل كثيرا ما أوثرهم على نفسي" (al-Matin, 2012, p. 46)، وهذا إن دل على شيء إنما هو دال على إيثار هذا الصعلوك وتقديم الفقير الآخر على نفسه وإن كان ذلك مسببا في نحوله وضعفه وموضع ازدراء وسخرية من أقاربه.

فالصعاليك لم يجدوا عيبا في عملهم بل كانوا يفخرون به ويرونه نوعا من الفتوة والقصاص من البخلاء والشحاح، وتضامن اجتماعي قل نظيره آنذاك، ولهذا فإن الصعلكة "لم تكن تلقى في الجاهلية إنكارا، وإن الصعاليك لم يكونوا موضع النفور والإزدراء أو البغض. فلم تحدثنا أخبارهم فيما نعلم قط عن إنكار أو ما يشابه الإنكار لهم أو لصعلكتهم، مع أنه كانت لهم مجامع عامة للشورى، كدار الندوة في مكة، وكالمجامع المشهورة في الأسواق وخاصة سوق عكاظ" (Hanafi, 1987, p. 86)، بحيث كانوا يتباحثون أمورهم داخل هذه المجامع ويعالجون مشاكلهم المشتركة، ولهذا نظر العرب إلى الصعلكة على أنها "مظهر من مظاهر القوة والمناعة، وأن أفرادها كسب كبير لقبائلهم، وسلاح قوي يذود عنهم قوى كثيرة مماثلة، ويحصنهم من عداوات كثيرة متربصة، ويحتاجون إليه حين تدعو الحاجة" (Hanafi, 1987, p. 86).

ومن هذا المنطق يمكن القول إنه "ليس من شك في أن هذه السجايا جميعا تكبر من شأن الفارس الصعلوك الجاهلي، فهو يتراءى لنا في أشعاره وأخباره جميعا مثلا رفيعا للأخلاق الكريمة، وقد وجد فيه من حوله خير أسوة، ومن ثم عمت شعراء الجاهلية في فخرهم ومديحهم هذه المثالية الخلقية" (Dayf, 1998, p. 21). وقد تغنت كتب الأدب بهذا الإبداع الرفيع في الخلق والحلم والنصرة للضعيف والمحتاج.

وأخيرا فإن شعر صعاليك الجاهلية قد عبر بعمق عن طبيعة الحياة الجاهلية التي مازجت بين الصلابة الجسدية والليونة الأخلاقي في إبداع قل نظيره، إذ أصبح اللص مصلحا اجتماعيا يدافع عن الضعيف وينصر الفقير ويدافع عن حقوق المستعبد اجتماعيا واقتصاديا..، وإن كان الصعاليك قد "آثروا في المجتمع الجاهلي موجة عاتية من الرعب والفزع، كما تحدثنا بذلك أخبارهم وأحاديث المجتمع عنهم، فأرهبوا أصحاب الإبل على مراعيهم وحظائرهم، وأرهبوا التجار في طرقهم ومسالكهم، وأرهبوا المارة في سبلهم ومعابرهم، ولكن ذلك لم يكن ليحظ من قدرهم في المجتمع الجاهلي بالذات، بل أحاطهم بهالة من الرهبة والإعجاب والإكبار، وأصبحوا أمنية القبائل، تتمنى كل قبيلة أن يكون من أبنائها من يشبه هؤلاء الأقوياء العناة، الذين ترتعد منهم فوارس البادية" (Hanafi, 1987, p. 86)، وخصوصا بعد تزكية هذه الملامح برفعة الخلق ومتانة المبادئ التي دافعوا عنها إلى آخر رمق وبين مختلف شعاب أرض العرب ومضاربها.

المبحث الرابع: تجربة عروة بن الورد في الصعلكة الخلقة

عرف العرب على امتداد التاريخ بصفات الحسن وبهاء الخلق، فكانت القبيلة تعتد بقوتها من حيث عدد فرسانها كما تغنت بجملة الأخلاق التي عرف بها أهلها، ومن أهم الصفات التي لطالما تغنى بها العرب صفة الكرم والوفاء، فأخذ حاتم الأولى وترك الثانية للسموأل، لكن شاعرنا الصعلوك عروة بن الورد ظفر بهما معا وفي آن واحد، فقد ورد في كتاب الأغاني عن الأصفهاني قوله معرفا بنسبه وصفاته أنه: "عروة بن الورد بن زيد، وقيل: ابن عمرو بن عبد الله بن ناشب بن هريم بن لديم بن عوذ بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار، شاعر من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين الأجواد" (al-Assfahani, 1994, p. 52)، وعرف بين أبناء جيله بلقب "عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ولم يكن لهم معاش ولا مغزى، وقيل: بل لقب عروة الصعاليك لقوله (al-Assfahani, 1994, p. 52):

لَحَى اللَّهُ صُعْلُوكاً إِذَا جَنَّ لَيْلُهُ * مُصَافِي المُشَاشِ آلِفاً كُلَّ مَجْزَرِ
يَعُدُّ الغِنَى مِنْ نَفْسِهِ كُلَّ لَيلَةٍ * أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مُيَسَّرِ
وَلَكِنَّ صُعْلُوكٌ، صَفِيحَةُ وَجْهِـهِ * كَضَـــــوءِ شِهَابِ القَابِسِ المُتَنَوِّرِ

وينتهي نسبه إلى قبيلة عبس، إحدى جمرات العرب، ومن أشهر القبائل العربية المعروفة بفرسانها وعلى رأسهم عنترة بن شداد، وشاعرنا عروة بن الورد، وكانت طرفا أساسيا في حرب داحس والغبراء، والحق أن عروة كان "ذو شرف في قبيلته، ولكن أباه كانت عبس تتشاءم به، لأنه هو الذي أوقع الحرب بينهما وبين فزارة بمراهنته حذيفة" (al-Assfahani, 1994, p. 53)،

أما "أمه فليس فيما بين أيدينا من أخبارها ما يشير إليها، ولكن عروة نفسه قد كفانا مشق البحث عنها، فهو يذكر في شعره أنها من نهد من قضاعة، ولكن الشيء الذي يلفت النظر في حديث عروة عن أمه أنه دائم السخط على هذه الصلة التي ربطت بين أبيه وأمه، بل إنه يهجو أخواله هجاء مرا، ولعل من أسباب هذه أن قبيلة نهد كانت أقل شرفا من عبس" (Khalif, 1978, p. 322). وفي ذكره للعار الذي لحقه من نسب أخواله نظم ناقما (Abu Bakr, 1998, p. 56):

مَا بِيَ مِنْ عَارٍ إِخَالُ عَلِمْتُهُ * سِوَى أَنَّ أَخْوَالِي إِذَا نُسِبُوا نَهَدُ

هذا العار الذي أحاط به من الطرفين كان سببا في بناء شخصيته، فمن ناحية الأب كان منبوذا بين قومه لإضرامه نيران حرب داحس والغبراء، أما من ناحية الأم فقد كانت من نسب حَسَبَ قوله أقل شأنا من قبيلته عبس، بالإضافة إلى أن أباه لطالما فضل أخاه الأكبر عليه فجعل شخصيته تتبنى صراعا داخليا ونهضة ثورية، "ومعنى هذا أن عروة تفتحت عيناه في الحياة على صورة مختلة التوازن من صورها: صورة الأخ الأصغر الذي يهمله أبوه مع ضعفه وحاجته إليه، أليست هذه الصورة هي التي شهدها عروة بعد ذلك في المجتمع الذي يعيش فيه في مجال أوسع: الأغنياء الذين يؤثرون الحياة بكل شيء مع غناهم، وعلى جانبهم الفقراء الذين تحرمهم الحياة من كل شيء مع شدة حاجتهم وضعفهم" (Khalif, 1978, p. 323)، وهكذا بدأ الفكر التأسيسي لنصرة الضعيف والثورة على المفارقات الاجتماعية عند عروة بن الورد يترعرع وسط حياة قبيلة مليئة بالصراع الطبقي، فكان قراره جريئا في اتخاذ الدفاع عن الفقير مبدءا أساسيا ونبذ الأغنياء أصحاب رؤوس الأموال الكارهين للكداح والمالكين لوسائل الإنتاج والثروات الضخمة.

لقد بنيت هذه الشخصية على مبادئ إنسانية دعا فيها عروة إلى الكرم والعطاء والجود، فكان حاتمي التفكير، واعتبره حنا الفاخوري: "صعلوكا من أشرف الصعاليك يعيش لغيره أكثر مما يعيش لنفسه، ويبذل كل شيء في سبيل الغير، أما صعلكته فعن حاجة وعن فقر، وعن رغبة في إغاثة ذوي الحاجة. وهو يعمل ما استطاع العمل، ويسعى بنشاط في سبيل أهدافه ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة، وهو لا يرهب الموت في سعيه بل يراه أجمل من أن يعجز عن دفع النوازل وإبعادها عن الناس" (al-Fakhouri, 1986, p. 173).

هذا القول السابق جامع مانع لصفات عروة، إذ أبانت أشعاره عن علو كعبه في الصفات الخلقية الرفيعة، ومن خلال شعره تبين أن "عروة بذلك كله يعبر عن نفس كبيرة، فهو لا يغزو للغزو والنهب والسلب كالشنفرى وتأبط شرا، وإنما يغزو ليعين الهلاك والفقراء والمرضى والمستضعفين من قبيلته، والطريف أنه لم يكن يغير على كريم يبذل ماله للناس، بل كان يتخير لغارته من عرفوا بالشح والبخل ومن لا يمدون يد العون للمحتاج في قبائلهم، فلا يرعون ضعفا

ولا قرابة ولا حقا من حقوق أقوامهم" (Dayf, 2000, pp. 383–384)، وبذلك تصبح صعلكته ضربا من ضروب النبل الخلقي وشكلا من أشكال الصفات الرفيعة وكأن صعلكته "أصبحت صنوا للفروسية، بل لعلها تتقدمها في هذه الناحية من التضامن الاجتماعي بين الصعلوك والمعوزين في قبيلته، وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشيء على من يرعاهم من صعاليكه، فلهم مثل حظه غزوا معه أو قعد بهم المرض أو الضعف، وهو يضرب بذلك مثلا رفيعا في الرحمة والشفقة والبذل والإيثار" (Dayf, 2000, p. 384).

ومن نصرته للفقير عن رواية للأصفهاني أن عروة كان "إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف، وكان عروة بن الورد يجمع أشباه هؤلاء ممن دون الناس من عشيرته في الشدة ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم، ومن قوي منهم إما مريض يبرأ من مرضه، أو ضعيف تثوب قوته، خرج به فأغار وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيبا، حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى، فلذلك سمي عروة الصعاليك، فقال في ذلك بعض السنين وقد ضاقت حاله (al-Assfahani, 1994, pp. 55–56):

لَعَلَّ ارْتِيَادِيْ فِي البِّلَادِ وَبُغْيَتِي ❋ وَشَدِّي حَيَازِيمَ المَطِيَّةِ بِالرُّحَلِ
سَيَدْفَعُنِي يَوْمًا إِلَى رَبِّ هَجْمَةٍ ❋ يُدَافِعُ عَنْهَا بِالعُقُوقِ وَبِالبُخْلِ

ومن هذا المنطلق كان طبيعيا "أن تجد دعوته آذانا صاغية، وقلوبا مؤمنة، وأنصارا مخلصين بين أولئك الفقراء المستضعفين الذين أجهدهم الفقر وأهزلهم الجوع، وأذلتهم الأوضاع الاجتماعية، وسدت الحياة في وجوههم سبل العيش الحر الكريم، فالتفت حوله طوائف من الصعاليك" (Khalif, 1978, p. 323)، تستنجد به وتجد فيه منقذهم من الصراع الطبقي والجور الاجتماعي الذي يعيشونه يوميا.

وكان بنو عبس لما رأوه في عروة بن الورد من صفات حميدة فجعلوه شاعر القبيلة وعنترة فارسها، وفي ذلك خبر عن الأصفهاني حيث قال: "بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للحطيئة: كيف كنتم في حربكم؟ قال: كنا ألف حازم، قال: وكيف؟ قال: كان فينا قيس بن زهير وكان حازما وكنا لا نعصيه، وكنا نقدم إقدام عنترة، ونأتم بشعر عروة بن الورد، وننقاد لأمر الربيع بن زياد" (al-Assfahani, 1994, p. 53).

وفي مقارنة بينه وبين أجواد العرب، يروى أن "عبد الملك قال: من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد" (al-Assfahani, 1994, p. 53). هذه المقارنة في النبل دلالة على أن صعلكة شاعرنا عروة هي صعلكة نبل وخلق رفيع.

إن توجه عروة في الصعلكة، هو توجه ثوري إحتاج فيه للمساندة من أجل النصرة وتحقيق المراد والذي ناله من الصعاليك الذين رافقوه في غاراته، لكن هذا النهب صوحب بالجود والكرم ومساعدة الفقراء ما جعل هذه الصفات تطفي على شخصيته هالة من الاحترام والتوقير، لحد أن يتمنى الخلفاء والملوك مصاهرته، لقول البعض منهم "لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم" (al-Assfahani, 1994, p. 52). وفي رواية أخرى: "قال عبد الملك بن مروان: ما يسرني أن أحدا من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله (al-Assfahani, 1994, pp. 52-53):

إِنِّي اِمْرُؤٌ عَافِيْ إِنَائِيَ شِرْكَةٌ * وَأَنتَ اِمْرُؤٌ عَافِي إِنَائَكَ وَاحِدُ
أَتَهزَأُ مِنِّي أَنْ سَمِنْتَ وَأَنْ تَرَى * بِوَجْهِي شُحُوبَ الحَقِّ وَالحَقُّ جَاهِدُ
أُفَرِّقُ جِسْمْي فِي جُسُومٍ كَثِيرَةٍ * وَأَحْسُو قَرَاحَ المَاءِ وَالمَاءُ بَارِدُ

وعروة يعبر عن "معنى إنساي رفيع، إذ تعرض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مضنى هزيل شاحب اللون، فقال له: إنني يشركني كثيرون من العفات والسائلين ذوي الحاجة في إنائي أو طعامي، أما أنت فلا يشركك أحد، ولذلك سمنت أما أنا فأصبحت ضامرا نحيلا، وما شحوب وجهي إلا آثار نهوضي بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين، فلست أنا الخليق بالهزؤ والسخرية، إنما الخليق بذلك السمين البطين، وما لبث أن قال: إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبارة أدق يقسم جسمه في جسومهم" (Dayf, 2000, pp. 384-385).

إن هذه الأخلاق كما سبق ورأينا قد جعلته موضع استمالة قلوب الخلفاء والملوك وطائفة المحتاجين، من الناحية "الخلقية الاشتراكية التي عرف بها إلا أننا لا نغفل آثار الشعر في هذه التزكية، وكونه كان الأداة التي حملت أخلاقه للناس، وعلماء النقد العربي لا يتجاهلون قدرهم (الصعاليك) الشعري، كما ذهب أبو عبيدة مثلا في وضع شعر عروة بن الورد في الطبقة الثالثة" (Hanafi, 1987, p. 89)، وهي طبقة متقدمة في تصنيفهم من حيث الجودة والمواضيع الحماسية التي خاض فيها.

وهكذا "يسجل أبو الصعاليك فلسفته في هذه المشكلة الاجتماعية الخطيرة، مشكلة الفقر والغنى، في هذا الأسلوب الممتاز الذي يستمد امتيازه من عنصرين أساسيين هما السخرية والبساطة: السخرية من ذلك المجتمع العجيب الذي يحتقر الفقير لا لشيء إلا لأنه فقير، ويقدر الغنى لا لشيء إلا لأنه غني، والذي لا يهتم بغير المظاهر المادية، أما جوهر النفس الكامن خلف هذه المظاهر فأمر وراء اهتمامه، ثم البساطة التي نلمسها في عرض الشاعر لمعانيه ذلك العرض السهل الذي لا يقبل معارضة، أو يثير جدلا، والذي ينفذ إلى النفس من أقرب السبل، ذلك العرض

الذي يصح أن نطلق عليه عرضا شعبيا" (Khalif, 1978, p. 329)، لقي على امتداد الزمن ترحيبا وحبورا طبقيا من حليفه أهل الكدح والفقراء والطبقة المسحوقة على مختلف الأصعدة.

وقد خلف لنا عروة بن الورد في ساحة الأدب ديوانه، رواه وشرحه "ابن السكيت وحققه الأستاذ عبد المعين الملوحي (بالإضافة إلى شرح وتحقيق الدكتورة أسماء أبو بكر محمد)، و"الكثرة المطلقة من شعر عروة إنما هي في تطوافه في الأرض لكسب الرزق، وفي وصف نجدته للفقراء، وتوزيع المال عليهم، وفي دعوته إلى نبذ السؤال والتماس الرزق من حد الحسم...وتبقى أبيات قليلة استأثر أكثرها بوصف نفسه وشجاعته، وبقيت حمالات لمدح ولعتاب قد يعنف حتى يقرب من الهجاء، ويرق حتى يصبح تعريضا خفيفا، كما بقيت بقايا يرد بها على من عيره بأمه، أو يصف بها بعض الغارات التي كان يغيرها مع قبيلته، أو يشكو بها من أحسن إليهم فأساؤوا إليه، أو يحن بها على إحدى زوجاته مطيلا مرة موجزا مرة..أما الوصف فقد ضمنه ثنايا أحاديثه كلها " (Ghazi & Irfan, 1992, p. 466)، وفي نفس السياق علق حنا الفاخوري على أدب عروة قائلا: "أدب عروة أدب إنساني في عاطفته وغاياته وإن كان ميكيافيليا في أساليبه وهو يروقنا بعاطفته ولا سيما نزعته الاشتراكية الساذجة المرتكزة على محبة الغير والحدب على ذوي البؤس، أما لغته فأقل خشونة من لغة غيره، تناسق مع نعومة عاطفته، وأما حكمته فطبيعية مستحبة وإن لم تخل من شراسة في ما تدعو إليه من أساليب التحصيل" (al-Fakhouri, 1986, p. 173).

كما أضاف شوقي ضيف قائلا:"والحق أن عروة كان صعلوكا شريفا، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة وأن يجعلها ضربا من ضروب السيادة والمروءة، إذ كان يستشعر في قوة فكرة التضامن الاجتماعي وما يطوى فيها من إيثار وبر بالفقراء، فهو لا يسعى لنفسه فحسب، وإنما يسعى قبل كل شيء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء" (Dayf, 2000, p. 378) وسط المجتمع الجاهلي.

وبهذا أصبحت صعلكة عروة بين دفتي كتب الأدب والتاريخ صعلكة كفاح ونضال شديدين ضد كل أشكال الاضطهاد الطبقي بمختلف تجلياته، مما جعل "أسلوب عروة في شعره أنه أسلوب شعبي، فهو سهل اللفظ بالقياس إلى شعر سائر الصعاليك، واضح المعنى، قريب التعبير، لا تكلف فيه ولا تصنع، وقد يكون هذا طبيعيا بعد أن قررنا أن عروة كان يقوم في حركة الصعلكة بالداعية المذهبي أو الزعيم الشعبي الذي يحرص على استمالة الجماهير إليه" (Khalif, 1978, p. 330)، لتقوية نصيبه من الصعلكة الاجتماعية ونصرة المحتاج والطبقة الكادحة في الجاهلية.

خاتمة

وآية القول، إن حركة الصعلكة في العصر الجاهلي قد عرفت شيوعا وتميزا قل نظيره آنذاك ومن بعده من العصور المتعاقبة، لكثرة صعاليكها، ولامتيازهم جسدا وخلقا عن باقي الطوائف المهيمنة حينذاك، فقد استقطبت الضعيف والقوي، المريض والمعتد بقوته، ومازجت بين الدافعية الجسدية والبطولة النفسية والخلقية، فخلقت اضطرابا تشخيصيا لتوجهها بصفة عامة، لكن يمكن الحسم في هذا القول بجعل الصعلكة نهب شرس وسلب أنيق، يخدم التوحيد ونصرة الضعيف على حساب الغني، فكان توجهها نوعا من الإصلاح الاجتماعي ونوعا من التضامن بين مختلف مكوناتها.

قد عبر الصعاليك عن هذه التجربة من خلال قصائدهم الشعرية، فها هو ذا الشنفرى مصورا نفسه إنسانا فتاكا لا يرحم ويصبو للانتقام من قبيلة آذته وسببت له عقدا نفسية عميقة، أما تأبط شرا فقد اعتز بسرعته التي يعطى بها المثل على امتداد العصور وإلى يومنا هذا، أما شاعرنا عروة بن الورد فقد أخذ مأخذا آخر لصعلكته، كانت بمثابة صعلكة اجتماعية تهدف لتحقيق التكافل الاجتماعي مع المحتاج والضعيف ولو على حساب سرقة ونهب الثري، وذلك لنظرة فلسفية للحياة، تؤمن بأن نهب أصحاب رؤوس الأموال وإعطاء الغنيمة للمحتاج نوع من التشاركية التي تقل في المجتمع الجاهلي فنصب نفسه أمير وزعيم الصعاليك، تعتز به قبيلته ويلوذ به كل فقير محتاج، وكل كادح لم يجد للحياة الكريمة نصيبا ولا دليلا، ومؤسسا لمدرسة للثورة والنضال على مختلف أشكال الحيف والتطرف والقمع لأهل العوز والحاجة.

REFERENCES

Abu Bakr Assmae. (1998). *Diwan: Orwa Ibn al-Ward,* étude. Beyrouth: Dar al-Kotob al-Ilmiaa.

al-Asfahani Abo al-Faraj. (1994). *al-Aghani*. Beyrouth: Dar Ihyae al-Torath, Lebanon.

Danan Saadi. (1994). *Diwan: al-Solayk Ibn Salaka*. Beyrouth: Dar al-Kitab al-Arabi.

Dayf Chaouki. (1998). *Bohoth mina al-Machrik wa al-Maghrib*. Dar al-Massriya al-Lobnaniya.

Dayf Chaouki. (2000). *Tarikh al-Adab al-Arabi: Assr al-Jahili*. Dar al-Maarif.

al-Fakhouri Hana. (1998). *al-Jamiaa fi Tarikh al-Adab al-Arabi*. Beyrouth: Dar al-Jil.

Farahat Youssef. (2004). *Diwan al-Saalik*. Beyrouth: Dar al-Jil.

al-Fayrouzabadi Mohamed Din Mohamed Ibn Yaakoub. (2008). *al-Kamos al-Mohit*. Caire: Dar al-Hatith.

Ghazi Tolaymat, Irfan al-Achkar. (1992). *al-Adab al-Jahili Kadayah wa Aghrad wa Aalamoho wa Fononoho*. Dar al-Irchad.

Hamdouch al-Arbi. (2012). *Anazaa al-Inssaniya fi Chiaar Saalik al-Jahiliya*. Mémoire.

Hanafi, Abd al-Halim. (1987). *Chiaar al-Saalik Manhajoho wa Khasaisoho*. al-Haya al-Massriya al-Aama li al-Kotob.

Ibn Mandour Abo al-Fadl Jamal Adin Mohamed ibn Makram. (1995). *Lissan al-Arab*, Vol. 10. Beyrouth.

al-Jawahiri Abo Nassr Ismaail Ibn Hamad. (2009). *al-Sihah*. Caire: Dar al-Hadith.

Khalif Youssef. (1978). *Achoaarae al-Saalik fi al-Assr al-Jahili*. Dar Al-Maarif.

Marwa Mohamed Reda. (1990). *al-Saalik fi al-Aasr al-Omawi Akhbarohom wa Achaarohom*. Beyrouth: Dar al-Kotob al-Ilmiya, Lebanon.

al-Matin Abd. (2012). *Dawr Achoaarae Asaalik fi Tatawor Achiaar al-Jahili*. D.S.M; Mémoire.

Mojamaa al-Logha al-Arabiya. (2004). *al-Moaajam al-Wassit*. République Arabe d'Egypte: Maktabat al-Chorok al-Dawliya.

Srbaz Hassan. (1389H). *al-Saalik wa Chiaarohom fi al-Assr al-Jahili*. Afak al-Hadara al-Isslamia.